

الصراع المذهبي الفقهي والعقدي في العالم الإسلامي  
نشأته أسبابه ومظاهره

**Doctrinal, jurisprudential, and  
ideological conflict: its origins, causes,  
and manifestations**

د . سمراني مصطفى

د . يزير بشير

mustaphasemrani1992@gmail.com bachiryazir1991@gmail.com

جامعة يحيى فارس المدية (الجزائر) جامعة الجزائر 2 (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2024/10/26 تاريخ القبول: 2024/12/12 تاريخ النشر: 2024/12/21

**ملخص:**

تعددت المذاهب الفقهية والعقدية في العالم الإسلامي، ولم تكن متوافقة دائما فيما بينها، فتراوحت علاقاتها ما بين الاتفاق في غالب الأحيان، وكانت في حالات أخرى في صراع هدّد الكيانات السياسية و أضرّ بالاستقرار المجتمعي، وكان الغلو في الأفكار والمعتقدات هو أخطر وضع وصل إليه أتباع تلك المذاهب والجماعات والفرق.

كلمات مفتاحية: المذاهب، الإسلام، العقيدة، الدين، السلام، الصراع

**Abstract:**

There were many doctrines of jurisprudence and doctrine in the Islamic world, and they were not always compatible with each other. Their relations ranged between agreement in most cases, and in other cases

they were in conflict that threatened political entities and harmed social stability, and extremism in ideas and beliefs was the most dangerous situation to which the followers of those doctrines, groups, and sects reached.  
**Keywords:** Doctrines, Islam, Creed, Religion, Peace, Conflict

#### مقدمة

يتشكّل الإسلام من مكّون عقدي و فقهي و سلوكي و قيمي متكامل جعله الله الدين الخالد للبشرية ليتمكّنوا من خلافة الله في الأرض و عمارتها بالخير و عبادة الله و توحيده، وجعل الدين كأساس لاكتمال إيمان الفرد و ترابط المجتمع فيكون المنضوون تحت لوائه خير أمة أخرجت للناس.  
و إذا كانت مصادر هذا الدين متمثلة أساسا في الوحيين الكتاب و سنة النبي محمد صلى الله عليه و سلم كأساس مرجعي موحد لكلّ المسلمين، فإن العقل الإسلامي سلك مسالك متعدّدة في استنباط محدّدات العقيدة و في التأميل الفقهي و في استحسان السلوك والقيم الضابطة لحياة المسلم فحدثت الخلافات و الاختلافات و التدافع والصراع و التعصّب و الغلو الذي كان يدفع بحالات الاتفاق والاستقرار و التكامل و التنوّع بعيدا عن المأمول لهذا الدّين و لاختيارات الأّمة التي حقّ لها أن تتبنّاها طيلة وجودها على ما مرّ من زمان في مضمار الأمم وفي تنافسها و تدافعها في عمارة الأرض و رعاية الإنسان.  
إن البحث في مسارات العقل المسلم و في أنساق الفكر التي تولّدت عن حركية ذلك الدين يجعلنا نقف دائما على محطّات الاتفاق و السمو الفكري والثراء العلمي كثيرا، و نقف كذلك على حالات الانكسار و الفرقة و الصراع والفشل التي لا تتوافق مع جوهر هذا الدين، فما هو منشأ تلك الخلافات التي ظهرت على صعيد الفكر والفقه و الاعتقاد ؟ و كيف أربكت تراتب الاستقرار لدى مرجعيات ذلك التعدّد و التنوّع؟ و إلى أيّ مدى يمكن أن ترسم النخب

مسارات الإنعتاق من حالات الغلوّ و التطرّف و التعصّب و الصراع المفتت للمكوّن الفكري الثقافي للحمة الأمة؟

### 1/ الإسلام في صورته الأولى:

كانت العقيدة الإسلامية تكمن في قلوب المسلمين في صفاء ويسر واعتزاز وإيمان حينما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى مرددا قول الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»، وبموته عليه السلام حاولت الفتنة أن تطلّ برأسها في صفوف خلاف على الزعامة واتخذت خلاف صورة جدية أول الأمر بين المهاجرين والأنصار ولكن سماحة هذا الدين وعمق جذوره في قلوب المؤمنين والبعد عن المطامع الذاتية كل أولئك قد ساعد على وأد الخلاف حينما اعترف المجاهدون بفضل الأنصار، وردّدوا رأي رسول الله صلى الله عليه وسلّم حين يقوم زعيم الأنصار سعد بن عبادة رضي الله عنه بكلّ ثبات وإيمان موجّها خطابه للمهاجرين: "نحن الوزراء وانتم الأمراء" وتنطفئ الفتنة التي أوشكت أن تندلع بأيسر ما يتصور العقل المفكر برضا الأنصار بأن تكون الإمارة في المهاجرين.

و أما في صفوف المهاجرين فإننا نلمس الأثرة في البيعة والاختيار فهذا عمر بن الخطاب العظيم يلتفت إلى أبي عبيدة يقول له: «ابسط يدك أبايعك فأنت أمين هذه الأمة» على لسان رسول الله فلا يستبشر أبي عبيدة ولا يرحب ببيعة عمر له ولا يتحمس لأخطر منصب عرفه الإسلام بعد الرسالة، ويعرض أبو عبيدة عن عمر وعن المنصب الذي بايعه عليه منصب الخليفة عن وإيمان ورضا: «أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين» فيقتنع عمر ويذهب إلى أبي بكر قائلا: «أبسط يدك أبايعك أنت أفضل مني فيقول أبو بكر أنت أقوى مني» ويكرّر ذلك ولكن عمر السمع سماحة أبي عبيدة يقول: «أن قوتي لك مع فضلك» وتتم البيعة لأبي بكر خليفة للرسول العظيم<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1996، ص116.

و تقابل بيعة أبي بكر بالرضا من المهاجرين والأنصار على السواء، حتى أن أحد زعماء الأنصار ولعلّه سعد بن عبادته يقول في مقام تعظيم أبي بكر عند البيعة: «نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر» وإذا كان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قد استأثّر في بيعه أبي بكر بعض الوقت، فإنّه ما لبث أن بايعه راضيا كل الرضا فليس من شك في أن عليا كان يحبّ أبا بكر ويجلّه ويضعه في مكانه من الإكبار والتقدير.

فإذا مات أبو بكر لا يلبث المسلمون جميعا أن يرتضوا مشورته قبل وفاته باختيار الخليفة العظيم عمر بن الخطاب، ومن بينهم علي وكان الخليفة يستعين به في حل عظام الأمور، ويقول: «أعوذ بالله من مشكله ليس فيها أبو الحسن» وهي كنية الإمام علي وهكذا فإن عامة الناس و سوادهم الأعظم اتفق على خلافة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما مجتمعين عليهما راضين بهما.<sup>(2)</sup>

## 2/ ظهور الفرق والمذاهب:

ويظل أمر المسلمين هادئا حتى يحدث الشقاق إزاء سياسة عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الثالث، وتنتهي الأمور بمأساة قتله بعد أن استقر الملك في عهده و اتفقت الناس على بيعته و كثرت الفتوح و امتلأ بيت المال وعاشر الخلق على أحسن خلق و بسط يديه لهم بالخيرات ثار الثائرون من قرّاء مصر على أقرابه ممّن ولّاهم أمور المسلمين و أخذوا عليه أحداثا كلّها محالة على بني أميّة و قتل بسبب ذلك مظلوما رضي الله عنه و ثارت الفتنة من بعد بسبب الظلم الذي وقع عليه و لم تسكن بعد<sup>(3)</sup>.

فبايع أكثر المسلمين علي بن أبي طالب الخليفة الرابع أميرا للمؤمنين، ولكن شبح الأطماع الشخصية وبقايا العصبية القبلية تطل برأسها لأول مره في الإسلام فينقسم المسلمون إلى قسمين أو حزينين: حزب ينتصر لعلي وحزب

<sup>2</sup> النوبختي الحسن بن موسى ق 3 هـ، فرق الشيعة، تج: محمد كاظم الموسوي، بغداد، العراق، 2017، ص 09.

<sup>3</sup> الشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم ت 584هـ، الملل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1992، ص 15.

ينتصر لمعاوية، أو بالأحرى حزب يتشبع لعلي وحزب يتشبع لمعاوية وبمرور الزمن أصبحت لفظه التشييع عنوانا ودلالة لأنصار علي وأبنائه وأحفاده من بعده، وكانت الشيعة في أول أمرها رأيا سياسيا ليس أكثر، كما كانت دعوة الأمويين للخلافة وحصرها في معاوية رأيا سياسيا أيضا، ويستشري الخلاف بين أنصار علي وأنصار معاوية ويجري التحكيم المعروف الذي كان بطلاه أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فلا يرضى به جناح من حزب علي فيخرجون عليه ويكونون حزبا ثالثا يعرف بالخوارج.<sup>(4)</sup>

وإذن فقد كانت الفرق الإسلامية عند نشأتها أحزابا سياسية وليست فرقا دينية. وإن لم تسمى بمسمى الأحزاب. والاختلاف بينها لم يكن اختلافا في صلب العقيدة الإسلامية وإنما كان خلافا في الرأي حول طريقة الحكم واختيار الحاكم ثم انقسمت كل فرقة إلى عدة فرق، وتسامع الناس عن الزيدية والإسماعيلية والإثني عشرية والكيسانية والمختارونية والكربونية والهاشمية والمنصورية والخطابية وغيرها من الغلاة والرافضة والخارجين على التوحيد أولئك الذين ألّهموا علي ابن أبي طالب كما أن فيهم أصحاب العقيدة السليمة والفكرة الصائبة<sup>(5)</sup>، و بقيت فرقهم الكبرى الثلاث بشهادة كتابهم و باحثهم وهم الإثنا عشرية والإسماعيلية والزيدية<sup>(6)</sup>.

وكما انقسمت الشيعة إلى فرق فإن الخوارج انقسموا بدورهم إلى فرق كثيرة منها الأزارقة والصفيرية الإباضية والعجاردة والثعالب وغيرها وكل فرقه من هؤلاء كانت تنقسم إلى فرق أخرى كثيرة وسبب كل ذلك على الأغلب خلافات

<sup>4</sup> أمير مهنا وعلي خريس، جامع الفرق والمذاهب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص 6.

<sup>5</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 118.

<sup>6</sup> النوبختي، المصدر السابق، ص 10.

سياسية نشأت عن اختلاف الرأي إزاء الحكم أو الحرب و كانوا يعرفون أول الأمر بأهل التّهروان لأنّ عليا رضي الله عنه قاتلهم هناك<sup>(7)</sup>.

ومع مضي الزمان تنشأ فرق أخرى في الإسلام كالمعتزلة والأشاعرة وتتأجج الخصومة بين كل هذه الفرق ويظل أهل السنة أقربهم إلى الحيدة والى فهم عقيدة الإسلام في غير ما عصبية أو تعسف<sup>(8)</sup>.

### 03 الصراعات المذهبية :

و الأمر الذي لا يقل عن السببين السالفين من حيث الأهمية هو ذلك التيار الشعبي الذي كان يستتر خلف التشيع فالذي لا شك فيه أن الشيعة وأعني منهم المعتدلون قوم طيبون يحبّون الرسول وآل بيته ولكن جماعة الشعوبيين ممن كانوا يظهرون التحمس للإسلام ويبطنون له الشر والضرّ استتروا وراء حب و تقدير و توقير آل البيت مما كان سببا في وقوع الأذى على آل البيت أنفسهم بسببهم و كانوا ضحية لخيانتهم و تهوّرهم.

و إذا ما تتبعنا المصادمات و الخلافات التي وقعت بين الشيعة والسنة سواء أكان المعتدلون هؤلاء أم أولئك، فإننا سنجد صفحات دامية سوداء لوّثت أفق الحياة الإسلامية لبضعة قرون من الزمان.

فرجل فاضل مثل أبي عبد الرحمن النسائي وكان متشيعا يسأل في دمشق عن معاوية وفضائله فيردّ ردا به مساس بالخليفة الأموي فإذا بالناس ذلك يدفعونه ويخرجونه من المسجد و يؤذونه حتى يموت بسبب ذلك.

و في سنة 350هـ وقع خلاف بين الجنود السنة من أتراك وسودانيين من جانب والشيعة من جانب آخر، ويسير الجنود في الشوارع يسألون من يجدون في الطريق من خالك؟، فإذا لم يقل معاوية يلقي من الضرب و الأذى ما لا طاقة له به<sup>(9)</sup>.

<sup>7</sup> أحمد عوض أبو الشباب، الخوارج تاريخهم فرقهم وعقائدهم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ص7.

<sup>8</sup> مصطفى الشكعة، المرجع نفسه، ص 117.119

<sup>9</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص521.

وتقع فتن دامية أعوام 408/ 444/ 445/ 449 هـ على عهد الخلافة العباسية في عصرها الثاني، ويجري قتال رهيب بين الشيعة والسنة وتسيل الدماء، دماء المسلمين من الطرفين أنهارا وتخرج نساء الشيعة ناشرات شعورهن حزنا على من ماتوا من أزواجهن ويلهبن عواطف العامة فيشتد الأمر وتشتعل الحرائق إلى أن تأتي على الأخضر واليابس لغير ما سبب إلا أن فريقا من المسلمين يخالف فريقا آخر في الرأي و ازدري الحنابلة في بغداد الشيعة و كانوا ينسبونهم إلى الكفر ويقفون في طريقهم ويتصدونهم ويمنعونهم من زيارة قبور الأئمة، ويوقعون بهم الأذى ولا يزال الأمر كذلك حتى يتدخل الخليفة لإخماد الفتن ومنع أي فئتين من الحنابلة و الشيعة من الاجتماع في مكان واحد، وفي مصر نقرا في أحداث سنة 353 هـ أنّ أحد كبار الشيعة يحبس لغير سبب فيموت في الحبس فيحمل إلى قبره ولكن يأبى التعصب الكريه أن يترك جثة الرجل تمر في أمان بل يلتحم الجند بأصحاب الشيخ وتقع بين الفريقين معارك دامية<sup>(10)</sup>.

ويظلّ الشيعة عرضة للمطاردة في كل بقعه من بقاع المسلمين في العراق وفارس والحجاز ومصر وإفريقية وتركيا، وما زالت الدماء الشيعية التي أراقها السلطان التركي سليم الأول في مستهل القرن السادس عشر الميلادي نقطة سوداء في تاريخه لأن الدافع إلى هذا الانتقام لم يكن له من سبب معقول إلا التعصّب في ظلّ الاختلاف المذهبي فقط فهؤلاء سنة وأولئك شيعة.

كما أنّ بعض الشيعة أنفسهم كانوا مسئولين عما يصيبهم من الأذى في بعض الأحيان لإظهار تعصّبهم ضد الصحابة الكرام ولعنهم جهارا، الأمر الذي كان يثير عليهم جمهور المسلمين ففي أحداث سنة 345 هـ قامت فتنه كبيره في أصبهان، وكان سكّانها سنين، لأن رجلا من أهالي قم وهم شيعة غلاة قد سبّ صحابه رسول الله، فوقع كثير من القتلى ونهبت أموال التجار من أهل قم، و في العام

نفسه قتل عدد كثير من الشيعة في القيروان رجالا ونساء وأطفالا ونهبت ديارهم

<sup>10</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 521.

وأحرقت بالنار وأحكم الحصار حولها فمات عدد كبير منهم جوعاً ومن كان يخرج كانت السهام تتلقفه فيختر صريعاً.

وإذا كانت حوادث مقاتل الشيعة كلها تتخذ هذا الطابع الدامي الحزين فإن هناك حوادث منها لم تكن تخلو من طرافة برغم أن سببها هو التعصب، فقد حدث أن تولى أمر قم وال جديد وكان الوالي سنياً متشددًا وكان أهلها شيعة غلاة، فبلغه أن القوم ولشدة بغضهم للصحابه لا يوجد بينهم من اسمه أبو بكر أو عمر، فجمعهم يوماً وقال لهم: «بلغني أنكم تبغضون صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكم لشدة بغضكم لهم لا تسمون أولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي أن اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن» فاستمهلوه ثلاثة أيام وفتشوا مدينتهم فلم يعثروا إلا برجل صعلوك حافي القدمين عاري الجسم أحور من أقبح خلق الله منظرًا، اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً واستوطن البلدة وجاءوا به للوالي فما إن رآه حتى شتمهم، وقال: «جئتموني بأقبح خلق الله تتندرون علي» وأمر بصفعهم، فقال له بعض ظرفائهم: «أيها الأمير اصنع ما شئت فإن هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن من هذا» فغلبه الضحك وعفا عنهم<sup>(11)</sup>.

و بما أن فرق الشيعة كانت متعددة حيث انقسمت الكيسانية إلى فرقتين و الإمامية إلى خمسة عشر فرقة و الزيدية إلى ثلاث فرق<sup>(12)</sup>، فقد تشعبت معتقداتهم و اجتهاداتهم و تطرقت و أصبحوا مبادرين بالعنف فلم يكونوا المعتدلى عليهم بصفة دائمة فكثيرا ما كانوا المعتدين خصوصاً إذا كانت الأمور في يد دولة شيعية كالبيوميين أو الفاطميين، وحيث يكثر تجمعهم فلم يكن إنسان يستطيع أن يذكر الصحابة بالخير في بعض الأزمنة في الكوفة لأن مصيره يكون القتل السريع ولذلك قيل من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل رحم الله عثمان.

<sup>11</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 522.

<sup>12</sup> عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ت 429، الفرق بين الفرق، تح محمد محي الدين بن عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، 2005، ص 30.

وكان في القيروان قاضي سني اسمه أبو سعيد فاستدعاه داعي الدعاة الفاطمي وطلب إليه أن يعتنق المذهب الشيعي فرفض القاضي قائلا: «لو نشرتني إلى اثنين ما فارقت مذهب مالك»، فأمر به داعي الدعاة فقطع لسانه.

وكان البويهيون لتعصّبهم المشين يكرهون أهل السنة وكثيرا ما أوقع معز الدولة البويهي الأذى بالخلفاء من قتل أو سمل لعيونهم لا شيء إلا أنهم سنيون. على أن أكثر ما حلّ بأهل السنة من أذى كان على يد الشيعة من الفاطميين فقد ضرب رجل في مصر وطيف به القاهرة لأنهم وجدوا عنده الموطأ للإمام مالك، وأمر الحاكم بأمر الله نائبه بدمشق بعقاب رجل مغربي ضرب وطيف به على حماره ونودي هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر وبعد انتهاء الطواف ضربت عنقه، وقد بالغ الفاطميون في مصر في إيذاء أهل السنة فعزلوا كل السنّيين من المناصب الحكومية، وحبسوا قاضي القضاة لأنه رفض أن يعترف بإمامة علي وسب الصحابة والخلفاء الراشدين بكتابات منقوشة على جدران المساجد وفي الشوارع، ولعنوا أهل السنة على المقابر إلى غير ذلك من أصناف الأذى التي أريق بسببها الدماء حيناً أو حلّ الأذى والتحقيق بالمخالفين مكان الدماء حيناً آخر.<sup>(13)</sup>

ولم يقف أمر الخلاف الدامي بين المسلمين على السنة والشيعة وحدهم بل إنه جرى بين المعتزلة والسنة أيضاً، ولعلنا ما زلنا نذكر فتنة خلق القران فقد أوقع المعتزلة بمساعدة بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم الأذى والضرر والقتل ببعض أهل السنة ممن رفضوا القول بخلق القران، ولعل أياذ خفيه كانت حريصة على إذكاء نار الفتنة بين المسلمين حتى بين أبناء الطائفة الواحدة، فقد جرت خلافات ومصادمات بين أهل السنة بعضهم ببعض، ولقد كان الحنابلة أنصار أحمد بن حنبل على رأس المعتدين دائماً، واشتهروا بالعنف في معاملة خصومهم من أبناء المذهب الشافعي، فقد ثاروا

<sup>13</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 523.

عليهم وألحقوا بهم الاعتداء وأرادوا أن يجعلوا لأنفسهم مركزا حصينا ينقضون منه على خصومهم، فبنو مسجدا في بغداد جعلوا منه وكرا للمشاغبة واستعانوا بفريق من الرجال مسلحين بالهراوات، كانوا يطلقونهم على الشوافع فيوسعونهم ضربا حتى يشرفوا على الموت.

وبلغ الأمر بالحنابلة وعنف خصومتهم أن منعوا دفن ابن جرير الطبري، فاضطر أصحابه أن يدفنوه في داره ليلا، فقد استعانوا بالعامّة في ذلك لا لشيء إلا أن الطبري لم يعترف بابن حنبل كفقيه، واعتبره محدثا ليس غير، وكان ابن جرير قد أسس مذهبا خاصا وكان صاحب علم وفضل<sup>(14)</sup>.

#### 4/ المذاهب أضعفت الإسلام:

يتفق قراء التاريخ الإسلامي أنّ الفرقة القاتلة وتلك الدماء المراقبة على مر القرون لم تفد الإسلام في شيء، بل نخرت عظامه وأضعفت مقاومته لتيارات الغدر والاستعمار ذلك أن هذه الخلافات من الخطورة بمكان<sup>(15)</sup>، حيث أن كل مسلم صحيح الإسلام غيور على دينه ووطنه لا بد وأن يتحمل جانبا من تلك المسؤولية سواء أكان من السلف الأولين أو من المسلمين اللاحقين<sup>(16)</sup>.

لم يندك خنجر الفرقة في صدر الإسلام بأيدي المسلمين وحدهم، ولكن بأيدي قوم ادعوا الإسلام أيضا، ليصلوا إلى هذه الغاية ولم يدخل الإسلام يوما إلى قلوبهم فالمجوسية والسبئية والشعوبية قد لعبت أدوارها بمهارة كاملة حين بذلت بذور الخلاف بين المسلمين منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، وكلما مرت عليه الأيام امتدت جذوره في الأرض قوة وثباتا، وفي أيام الفاطميين لعب اليهود من أمثال ابن كلاس ونشتكين الدرزي دورا خطيرا في تفتيت العقيدة الإسلامية وتمزيق وحدة المسلمين، بل إنهم مكنوا لبعض الخونة من تولي الوزارة والتعلّق بها حتى لم يجد بعضهم أي غضاضة في أن يستعين على خصومه من المسلمين بأعداء الإسلام من الصليبيين الذين كانوا مغتصبين لديار العرب

<sup>14</sup> المرجع نفسه، ص 524.

<sup>15</sup> محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1997، ص 324.

<sup>16</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 524.

والمسلمين في ذلك الزمان، ولا شك أن أول نتيجة مؤسفة لهذه الخلافات التي اتخذت مكانها في عمق مرير بين صفوف المسلمين أن ضاعت الأندلس وأجلى عنها أجدادنا من الفاتحين بعد عن عمروا على أرضها ثمانية قرون أو تزيد. ومن عجب أن الاستعمار الحديث أو بالأحرى الصليبية المعاصرة والصهيونية الماكرة التي يعتنقها كل المستعمرين كل أولئك الأعداء لا يزالون يستفيدون من تفرق المسلمين في مذاهبهم وهم من اجل ذلك يوسعون شقه الخلاف بين المسلمين من أبناء الوطن الواحد، ففرّقوا بين السني والشيعة في العراق ولبنان، وبين السني والإباضي في تونس والجزائر أيام الاستعمار الفرنسي، وساروا على نفس الطريقة في بقية بلاد المسلمين، والفرقة تؤدي دائما إلى الضعف وضعف المسلمين يمكن من خلاله للمستعمرين أعداء الإسلام أن يثبتوا أقدامهم في أرض المسلمين التي هي اليوم أغنى بلاد العالم بالمواد الخام التي تحتاج إليها الصناعات الضخمة المعاصرة ولا سبيل أمام المستعمر للوصول إلى هذه الثروات الضخمة إلا عن طريق تمزيق الشمل وتفريق الكلمة وتآليب المسلم على أخيه المسلم و عبر استغلال بعض ضعاف النفوس من أبناء بعض الفرق الإسلامية وتشجيعهم والإغداق عليهم، وبناء آمال لهم كذب، وبذلك يخرجونهم عن الصف ويتخذونهم معاول هدم وأدوات تدمير<sup>(17)</sup>، و يتدخلون في الأوطان بحجة حماية الأقليات الطائفية والعرقية.

وقد تمكن الاستعمار بهذه الطريقة الجبارة بأن يحرز بعض الانتصارات المؤقتة فكما ضاعت الأندلس في الماضي نتيجة الفرقة والتمزق فإن فلسطين قد ضاعت منذ بضعة عقود وطرد العرب من ديارهم وديار آبائهم وأجدادهم وسلبوا أموالهم ومرابعتهم وأراضيهم<sup>(18)</sup>، و تفتت أوطان أخرى كالعراق وسوريا ولبنان واليمن وليبيا والسودان بسبب الشحذ المذهبي والعرقية والطائفية و بسبب التناقض الفكري و التدافع السياسي العنيف.

#### 5/ أسباب الاختلاف:

<sup>17</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 525.

<sup>18</sup> المرجع نفسه، ص 528.

إن المسلمين قد اختلفوا إلى مذاهب و جماعات و فرق في الاعتقاد والسياسة والفقه وقبل أن نخوض في بيان أسباب الخلاف يجب أن نقرر أمرين: أولهما: أن هذا الاختلاف لم يتناول لب الدين فلم يكن الاختلاف في وحدانية الله تعالى وشهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في أن القرآن نزل من عند الله سبحانه وتعالى، وأن معجزة النبي الكبرى ولا في أنه يروى بطريق متواتر نقل الأجيال الإسلامية كلها جيلا بعد جيل، ولا في أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم، ولا في طريق أداء هذه التكاليفات، وبعبارة عامة لم يكن الخلاف في ركن من أركان الإسلام ولا في أمر علم من الدين بالضرورة كتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة والقواعد العامة للميراث، وإنما الاختلاف كان في أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة<sup>(19)</sup>.

**الأمر الثاني:** أن هذا الاختلاف بلاريب شر بالنسبة للاختلاف حول بعض العقائد وحول السياسة، ولذلك روى البخاري عن زينب بنت جحش أنها قالت استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه يقول: « لا اله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب»، ويشير النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يجري بين المسلمين من خلاف من بعده، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «افتترقت اليهود على واحد وسبعين فرقة وافتترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستتفرق أمي على ثلاث وسبعين فرقة»، وقد تكلم علماء السنة في صحة هذا الحديث الذي روي بعده روايات مختلفة، وحديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة فيه روايات كثيرة يشد بعضها بعضها بحيث تبقى قريبة متوائمة في حاصل معناه<sup>(20)</sup>.

وإذا كان الافتراق حول العقائد في جملته شرا فإنه يجب أن نقرر أن الاختلاف الفقهي في غير ما جاء به نص من الكتاب والسنة لم يكن شرا، بل كان دراسة عميقة لمعاني الكتاب والسنة وما يستنبط منهما من أقيس ولم يكن افتراقا بل كان خلافا في النظر، وكان يستعين كل فقيه بأحسن ما وصل إليه

<sup>19</sup> محمد أبو زهرة، المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1975، ص 11.

<sup>20</sup> المرجع نفسه، ص 11.

الفقيه الآخر ويوافقه أو يخالفه، وكان عمر بن عبد العزيز يسره اختلاف الصحابة في الفروع ويقول ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يختلفون لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق وأثمهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة، وقد يسأل سائل لماذا اختلف المسلمون بعد النبي صلى الله عليه وسلم وقد تركهم على المحجة الواضحة ليلها كنهها وترك فيهم ما إن أخذوا به لن يضلوا بعده أبداً، فقد ترك فيهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والجواب عن ذلك أن أسباب الاختلاف كانت كثيرة، والاختلاف قسمان: اختلاف لم يفرق الأمة ولم يجعل بأسها بينها شديداً واختلاف قد فرق الأمة وأذهب وحدتها، وهو الخلاف في السياسة وشؤون الحكم، ولذلك نذكر بعض أسباب الخلاف بنوعيه<sup>(21)</sup>.

### 1.5 العصبية العربية:

هذه من أسباب الخلاف بل هو جوهر الخلاف الذي فرق أمر الأمة، فإن الإسلام قد حارب العصبية في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، من مثل قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من دعا إلى عصبية» وقوله: «كلكم لأدم وأدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، وقد اختفت العصبية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهذه البيّنات الواضحات، واستمر اختفاؤها إلى عصر الخليفة الشهيد عثمان بن عفان، ثم انبعثت في آخر عهده قوية، عنيفة وكان انبعاثها له أثر في الاختلاف بين الأمويين والهاشميين أولاً، ثم الاختلاف بين الخوارج وغيرهم، فقد كانت القبائل التي انتشر فيها مذهب الخوارج من القبائل الربعية لا من القبائل المضرية، والنزاع بين الربيعيين والمضريين معروف في العصر الجاهلي فلما جاء الإسلام أخفاه حتى ظهر في نحلة الخوارج من جديد<sup>(22)</sup>.

### 2.5 التنازع على الخلافة:

<sup>21</sup> محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص12.

<sup>22</sup> المرجع نفسه، ص12.

ومن الأسباب الجوهرية التي أحدثت الخلاف السياسي التنزع من الذي يكون أولى بخلافة النبي صلى الله عليه وسلم في حكم أمته، وقد انبعث ذلك النوع من الخلاف عقب وفاه النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، ولكن قوه إيمان الأنصار حسنه الخلاف ولم يظهر له أي أثر وقد اشتدت الخلافات بعد ذلك حول الخلافة من يكون أحق بها؟ أيكون من قريش، أم يكون من أولاد علي بن أبي طالب خاصة أم يكونوا من المسلمين أجمعين؟، لا فرق بين قبيل وقبيل وبيت وبيت فالجميع أمام الله تعالى سواء، والله يقول: «إن أكرمكم عند الله اتقاكم»، والنبي يقول: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» وهكذا انقسم المسلمون إلى خوارج وشيعة وسنة وجماعات أخرى<sup>(23)</sup> تتقاتل من أجل الخلافة والحكم فقد كان الخوارج بحروبهم أحد أهم الأسباب التي أسقطت الدولة الأموية<sup>(24)</sup>.

### 3.5 دخول الأجناس والديانات الأخرى إلى الإسلام:

دخل كثيرون من أهل الديانات القديمة في الإسلام، فدخل في الإسلام يهود ونصارى ومجوس وكل هؤلاء في رؤوسهم أفكارهم الدينية الباقية من ديانتهم القديمة، وقد استولت على مشاعرهم فكانوا يفكرون في الحقائق الإسلامية على ضوء اعتقاداتهم القديمة، وقد أثاروا بين المسلمين ما كان يثار في ديانتهم من الكلام في الجبر والاختيار وصفات الله تعالى فهل شيء غير الذات، أم هي الذات شيء واحد، وأنه يجب أن نقرر أنه كان بجوار هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام مخلصين ولكن ما زالت في رؤوسهم بقايا ديانتهم القديمة، فأخرون دخلوا في الإسلام ظاهره وأعلنوا غيره، وما كان لدخولهم إلا ليفسدوا على المسلمين أمور دينهم ويبثوا فيه الأفكار المنحرفة ولذا وجدوا من نشر بين المسلمين أهواء مرضية كما كان يفعل الزنادقة وغيرهم من المنحرفين<sup>(25)</sup>.

### 4.5 ترجمه الفلسفة:

<sup>23</sup> محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 13.

<sup>24</sup> محمد عمارة، المرجع السابق، ص 29.

<sup>25</sup> محمد أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 15.

ومن الأسباب تلکم الترجمة التي انطلقت في العصر العباسي الأول، فقد كان لترجمه الكتب الفلسفية أثر واضح في الخلاف إذ اخترق الفكر الإسلامي كثير من المنازع الفلسفية، والمذاهب القديمة في الكون والمادة وما وراء الطبيعة المحسوسة وظهر من علماء المسلمين من نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين، وأخذوا بطريقتهم وظهر في ذلك أقوام شكّيون ينزعون في الشك منزع السفسطائيين الذين ظهروا في اليونان والرومان، وانبثقت حول هذه المذاهب أفكار مختلفة وكان لذلك أثره في التفكير الديني نفسه، فقد وجدنا مفكرين يفكرون في العقائد الإسلامية تفكيراً فلسفياً كما نرى في المعتزلة الذين نهجوا مناهج الفلاسفة في تناولهم شؤون السياسة والحكم<sup>(26)</sup> وفي إثبات العقائد الإسلامية وكان علم الكلام في غالبه على مناهج المعتزلة ومن يردون عليهم من علماء السنة هو مجموعته من الأقيسة المنطقية والتعديلات الفلسفية والدراسات العقلية المجردة، لبحث كثير من المسائل الغامضة، إن شيوع التفكير الفلسفي بين علماء المسلمين في إثبات العقائد قد جرّهم واستدرجهم إلى دراسة مسائل ليس في استطاعة العقل البشري أن يصل إلى نتائج مقرره ثابتة فيها، كمسألة إثبات صفات الله تعالى ونفها ومسألة قدرة العبد بجوار قدره الرب، وغير ذلك من المسائل، فإن البحث في هذه المسائل يفتح باباً واسعاً من أبواب الاختلاف، إذ تختلف الأنظار وتباین المسالك ويتّجه كل اتجاه يخالف الآخر وربما كان أكثر المسائل التي وقع الاختلاف فيها علماء الكلام من هذا القبيل<sup>(27)</sup>.

### 5.5 القصص:

ظهر القصص في عهد عثمان رضي الله عنه وكرهه الإمام علي رضي الله عنه حتى أخرج القصص من المساجد لما كانوا يضعونه في أذهان الناس من خرافات وأساطير، بعضها مأخوذ من الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف وعزّاه التغيير، وقد كثر القصص في العصر الأموي وكان بعضه صالحاً وكثير منه غير

<sup>26</sup> محمد عمارة، المرجع نفسه، ص 44.

<sup>27</sup> محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 15.

صالح، وربما كان هذا القصص هو السبب في دخول كثير من الإسرائيليات في كتب التفسير وكتب التاريخ الإسلامي، وأن القصص في كل صوره التي ظهرت في ذلك العصر كان أفكارا غير ناضجة تلقى في المجالس المختلفة، وأن من الطبيعي أن يكون بسببها خلاف وخصوصا إذا شايع القصص صاحب مذهب أو زعيم فكرة أو سلطان، أو شايع الآخر غيره فإن ذلك الخلاف يسري إلى العامة وتسوء العاقبة وكثيرا ما كان يحدث ذلك في العصور الإسلامية المختلفة، ورود المتشابه في القرآن الكريم، قال الله تعالى: « هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكّر إلا أولو الألباب»، بهذه الآية ثبت ورود المتشابه في القرآن الكريم ليختبر الله سبحانه وتعالى قوه الإيمان في المؤمنين، وقد كان وروده سببا في اختلاف العلماء في مواضع المتشابهات من القرآن الكريم، وحاول كثيرون من ذوي الأفهام تأويله والوصول إلى إدراك حقيقة معناه فاختلّفوا في التأويل اختلافا متباينا ومن العلماء من أرادوا أن يجعلوا بينهما وبينهم حجابا مستورا فما كانوا يؤولون بل كانوا يتوقفون ويقولون ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة<sup>(28)</sup>.

### 6.5 استنباط الأحكام الشرعية:

الينبوع الصافي لهذه الشريعة هو كتاب الله تعالى وسنه رسوله صلى الله عليه وسلم وأن النصوص تتناهى ولكن الحوادث لا تتناهى، فكان لابد من استنباط حكم شرعي لكل حادثه من الحوادث والنصوص، واتفق الفقهاء على أنّ الأحكام الكلية لا تعي فيها الأحكام الجزئية بالنص، فكان لابد من التعرف بالنظر والفحص وقد تشعبت بين أيدي الدارسين طرق تعريف الأحكام، وكل اخذ بما استقام في منطقته ونظره وبما وصل إليه من حديث أو اثر لصحابي صح عنده، ويجب أن نلاحظ أن الخلاف الذي نتج عن هذا الاستنباط ليس خطيرا

<sup>28</sup> محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص 16.

بل أنه كان محمودا العاقبة حسن النتيجة إذ نتج من مجموع الآراء المختلفة ما يمكن أن يستخلص منه قانون محكم يعادل أحكام القوانين وضعا وأعدلها منهجا وأقواها على مسaire الزمن مع مسابقة الفطرة الإنسانية السليمة<sup>(29)</sup>.

#### 6/ تقريب المذاهب :

المذاهب التي تعرضنا لها بالحديث في هذا المقال بعضها مندثر وبعضها قائم وبعضها تداخل في مذاهب قائمة، فأما المذاهب المندثرة فهي الأزارقة والصفيرية والنجدات والعجاردة والثعالب من الخوارج، ولم يبق منهم إلا الإباضية الذين يعيشون الآن في عمان وطرابلس وتونس والجزائر وشرق إفريقيا، وهؤلاء يغضبون ممن يطلق عليهم اسم الخوارج وبقي الإباضيون الذين ينتسبون إلى عبد الله بن أباض الذي خرج على مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية و هم المعتدلون في فرق الخوارج<sup>(30)</sup>، والمذاهب المندثرة من الشيعة كثيرة مثل السبئية والكيسانية والمغيرية والكاملية والمنصورية والنعمانية والخطابية والهشامية واليونسية ولم يبق منهم إلا الإمامية والزيدية والإسماعيلية والدروز والعلوية، وأما المعتزلة فقد اندثر حزبه كمذهب قائم بذاته فلم نعد في عصرنا الحديث نسمع عن الواصليّة أو الهديلية أو النظامية أو الجاحظية أو البشرية أو الجبائية إلى غير ذلك من المدارس الاعتزالية الفرعية، وإنما ذهب المذهب في تعاليم الشيعة الزيدية بحيث أخذ المذهبان أطيب ما عند المعتزلة من أفكار وأطروحات من ما قد تورط فيه علماء الاعتزال من تطرف واندفاع في القرون الأولى من ظهور الإسلام.

وإلى ذلك نستطيع أن نعدّ من المذاهب الإسلامية المعاصرة أهل السنة والإباضية والشيعة الزيدية والشيعة الإثنا عشرية، وغير الغلاة من الإسماعيلية والدروز والعلويين والأحمديّة.

وإذا أمعنا النظر جيدا وطرحنا الأفكار البالية الجامدة خلف ظهورنا فإننا لن نجد كبير خلاف بين كل من مذاهب السنة ومذاهب الشيعة الإمامية

<sup>29</sup> محمد أبو زهرة، المرجع السابق ، ص16.

<sup>30</sup> أحمد عوض أبو الشباب، المرجع السابق، ص264.

ومذهب الشيعة الزيدية، وكذلك لم نجد كبير خلاف بين السنة وبين الإباضية، فالإمام أبي حنيفة السني كانت تلميذا للإمام زيد بن علي الذي إليه ينتسب المذهب الزيدي، أخذ عنه الفقه وأصول العقائد والإمام زيد تلميذ لواصل بن عطاء أحد رؤوس المعتزلة، وكان ملازما له وقد ليم في ذلك لأن واصل لا يوافق الشيعة في كل ما قالوه عن الإمامة، ولكن زيدا صاحب الأفق الواسع والمدارك السمحة ضرب بكل ذلك عرض الحائط، وظلّ مخلصا لتعاليم واصل ابن عطاء وأخذ عنه، ولذلك فإننا نرى الكثير من سمات الاعتزال طافية واضحة على أصول ومنهج المذهب الزيدي، وبذلك نرى كيف أخذ الإمام أبو حنيفة السني عن الإمام زيد الشيعي الزيدي عن واصل بن عطاء المعتزلي تسلسلا<sup>(31)</sup>.

وليس ذلك وحسب بل إن إماما سنيا آخر يأخذ عن إمام شيعي آخر وذلك هو الإمام مالك بن انس الذي كانت تلميذا للإمام جعفر الصادق رأس الشيعة الإمامية أو الجعفرية، وكان إماما فاضلا ورعا له من الإيمان والثقافة الدينية ما لم يتوفر لإمام آخر من معاصريه، ولذلك فإن فقهه ونظراته محل احترام جميع أهل السنة، ومن هنا لا يبدو الأمر غريبا أن يتفقه الإمام مالك السني على الإمام جعفر العلوي، ويأخذ عنه هو وغيره من الأئمة الذين عرفوا فيما بعد باسم السنة، فليس ثمة خلاف واسع بين السنة والشيعة الإمامية والشيعة الزيدية طالما أن أئمة هذه المذاهب قد ارتبط بعضهم ببعض في ثقافتهم وعقيدتهم وأفكارهم على النهج الذي ذكرنا.

على أن الأمر لم يقف بنا في علاقات المذاهب بعضها وبعض عند هذا الحد بل إن الإمام البخاري حافظ سنه كان يجلس بين يدي عمران بن حطان الخارجي يتلقى عنه الحديث ويدونه، فتكون هذه صلة جديدة بين الخوارج والسنة بل إن واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد رئيسي المعتزلة أخذوا علمهما من الحسن البصري الذي يعتبره الشيخ محمد عبده شيخ السنة من التابعين، والاعتزال في أول أمره وقبل أن يدخل عليه التطرف الذي جاءه من الثقافة

<sup>31</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 529.

اليونانية في عصورها المتأخرة لم يكن بعيدا عن السنة بعدا كبيرا حتى أن الحسن البصري يسأل عن عمرو بن عبيد رأس المعتزل فيجيب سائله قائلا: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ولا باطنا أشبه بظاهر منه».

إن عالما جليلا مثل الحسن البصري لا يمكن أن يصف عمرو بن عبيد بهذه الأوصاف لو كان فيه قيد شعرة من انحراف في مذهبه واعتقاده، وإنما الانحراف جاء فيما بعد وعلى يد خلفائه ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية كما ذكرنا فالاعتزال إذن في أصله وروحه ليس بعيدا عن السنة ذلك البعد الذي ظهر فيما بعد حيث ابتأ عقديا و تحوّل سياسيا و عاد و تشعّب باتباعه في غياهب علم الكلام<sup>(32)</sup>، وهكذا نجد تلك الروابط الأكيدة التي تجمع بين السنة و الإمامية في شخصي مالك وجعفر وبين السنة والزيدية في شخصي أبي حنيفة وزيد وبين السنة والمعتزلة في أشخاص الحسن البصري وعمرو بن عبيد وواصل ابن عطاء وبين الزيدية والمعتزلة في شخصي زيد وواصل وبين الزيدية والإمامية في شخصي الأخوين زيد ومحمد الباقر وبين السنة والخوارج في شخصي البخاري وعمران بن حطّان الذي أملى الحديث على البخاري، بل الإباضية بصفة خاصة هم أول من جمع الحديث الذي يعتبر المصدر الثاني لفقه السنة وعقائدها<sup>(33)</sup>.

هي إذن روابط أكيدة متينة لها وزنها وقداستها، تلکم التي جمعت بين المذاهب سالف الذكر التي يعتنقها عدد كبير من المسلمين أي السنة والإمامية والزيدية و الإباضية، وليس ثمة تنافر في إمكان التقريب بين الإباضية والشيعة هذين المعسكرين اللذين يبدوان لأول وهلة أبعد ما يكون الواحد منهما عن الآخر، ذلك لأن الإباضية لا يعتبرون أنفسهم خوارج بل إنهم يغضبون أشد الغضب ممن يطلق عليهم هذه الصفة، وهم لا يلعنون عليا كما يشيع بعض الفقهاء ولكنهم يعتبرون التحكيم الذي جرى بينه وبين معاوية باطلا، ويقولون

<sup>32</sup> محمد عمارة، المرجع السابق، ص 43.

<sup>33</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص 530.

أن الإمامة لا ينبغي أن تكون مقصورة في بيت علي بل هي جائزة في من تتوفر فيه شروطها من عامة المسلمين.

فالاخلاف إذن بين الإمامية الإباضية لا يكاد يبعد كثيرا عن الخلاف بين الإمامية والسنة وهو الخلاف على الإمامة وهو خلاف يمكن سحبه وتجاوزه في الوقت الراهن فليس هناك في الوقت الحاضر نظام لحكام المسلمين عن طريق الإمامة إلا في اليمن والإمام هناك طالما توفرت فيه الشروط فهو يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية وهو شأن قطري اليوم يخضع لإرادة النخب السياسية الحاكمة ولاختيارات الشعوب لمؤسسات حكم بلدانها.

قد يثير سائل مسألة الإمام المستور الذي يعتقد الإمامية بظهوره ولا تأخذ برأيهم فيه بقيه المذاهب الإسلامية، ونحن نقول إن هذه أيضا مسألة لا تدعو للخلاف والتفرقة في صفوف المسلمين ما دام الإمام لم يظهر بعد وحين يظهر يمكن أن نتفق أو نختلف، أما الخلاف على أمور لم تحدث بعد فإن ذلك أمر لا يتفق مع تفكير العقلاء، هذا فضلا عن أن عدم الاعتقاد بالإمام المهدي في رأي الشيعة أنفسهم لا يدفع بصاحبه إلى مزالق الكفر و مهاوي الظلال<sup>(34)</sup>.

وهناك مسألة خلافية أخرى بين الشيعة الإمامية من ناحية وبين بقية المذاهب المشار إليها أنفا من ناحية أخرى، وهي مسألة المتعة ونحن نقول أنها مسألة فقهية محضة، ولهؤلاء حججهم من سنة رسول الله و في فهمها ولأولئك حججهم من سنة رسول الله وتشريع صحابته.

هذا بالإضافة إلى أمور أخرى ليست بأهل لأن توسّع شقة الخلاف بين هذه المذاهب لأن الخلاف يقوم أحيانا بين أئمة المذهب الواحد نفسه، فأبو حنيفة أقرب إلى الزيدية في بعض المسائل منه إلى الشافعي، مع أن كليهما إمام من أئمة أهل السنة، ولم يقل عاقل أن أحدا من الإمامين الفاضلين قد خرج عن الجادة أو انزلق عن الدّين ففي كثير من الحالات نجد إماما سنيا أقرب في اجتهاده وتفكيره إلى إمام شيعي منه إلى زميل له من أئمة السنة.

<sup>34</sup> مصطفى الشكعة، المرجع السابق، ص. 531.

فنحن نستطيع أن نقول أنه لا يوجد الخلاف الذي يؤدي إلى هذه  
الفرقة الطويلة الخطيرة بين السنة والإمامية والزيدية والإباضية اللهم إلا ما  
كان نتيجة الجهل والجمود والتعصب و التطرف و الغلو عند بعض من  
ينتسبون إلى واحد من هذه المذاهب ممن جعل العامة لهم مكانه دينيه مرموقة.  
7/ حدود الاتفاق ومحددات الاختلاف :

يتفق المعتدلون من أهل الفرق و المذاهب الإسلامية كلها حول أركان  
الإسلام و الإيمان و في أصول الشريعة و في كلياتها، و يختلفون في فهم دلالات  
النصوص النقلية و في تفسيرها و في إسقاطها على واقع مجتمعهم و جماعاتهم  
المذهبية، و هي مجالات كانت ستظلّ رحيبة تقبل بالتعدد في الفروع و تتفق عند  
الكليات و الأصول، لكنّ عامل الغلو والتعصب ألقى بثقله في تدافع تلك  
الجماعات و المذاهب الفقهية والعقدية خاصة عند دخول مشاكل الحكم و  
السياسة و التنافس غير الشريف عليها طيلة تاريخ الأمة.

و إذا كان منشأ هذه الفرق و الجماعات الكبرى سياسياً أول الأمر إلا أنّه  
سرعان ما تحوّل إلى تلون عقدي و تدافع مذهبي و صراع في بعض الأحيان  
دموي، عرقل تواصل الحياة و أربك إيقاع الأمن و الأمان فيها وضاعت من الأمة  
جهود كانت ستضاف إلى رصيدها في العمران والحضارة و المدنية و في عمارة  
الأرض.

إن حواراً عميقاً بين علماء و قامات و أعلام المذاهب يجب أن ينطلق  
ليجعل خارطة طريق للعقل العربي الإسلامي، و يضع حدوداً للغلو و التطرف و  
يرسم مسارات للانعتاق من ربكة الماضي السحيق في صورته القاتمة الملوثة  
بعض حلقاتها بألوان التعصب و الجمود والانغلاق و نفي المخالف، و يبحث في  
محددات الاتفاق و الاجتماع والاندماج بدل الإيغال في الشحن المذهبي و  
الطائفي و التناطح في الأفكار و المعتقدات.

لقد اتفقت اليوم أمم الشرق و الغرب فيما بينها و بحثت لها عن أسباب  
الاتحاد و الاجتماع و ساقطت لأهمها من خيرات الأرض و ن تسخير علوم المادة و  
من مرتكزات النظم الاقتصادية ما جلب الخير و الرفاهية و الاستقرار لشعوبها

بينما تقف أقطار العالم الإسلامي عاجزة عن تجاوز خلافة دفيئة انتهت أطوار أحداثها من موكب التاريخ و طويت صحائف يومياتها و بقيت سخائم عصبيتها جائمة على الصدور و مربكة لتفكير العقول في مشهد بائس يجعل عملية العودة منها صعبة و معقدة لا أفق لها.

إنّ مهام مراكز البحث و مخابرها يجب أن تأخذ على عاتقها خلق مجالات للحوار الفكري من أجل إعادة ترميم انكسار العقل العربي و تفتّت عناصر الوحدة و الالتئام لديه، ليأخذ بمجامع الاتفاق و التفاهم و الاجتماع و أن ينبذ الاختلاف المفضي إلى القطيعة و الصراع و نفي التنوّع لأنّ الدين في حدّ ذاته يقبل التعدّد و التنوّع في الفروع و الهوامش و الثانويات، فما من نخب ركّزت على الفروع و الهوامش ستجد نفسها في دائرة النمطية و الانغلاق و التعصّب و الغلو و الاختلاف المفضي إلى الفرقة و التضاد و الصراع و هو الذي حدث في الماضي و ألقي بضلاله على واقع الفكر و الفقه و الدين في واقعنا اليوم.

إنّ آلة العولمة الثقافية والاقتصادية اليوم تجبر المتلقين من الأمم المستهدفة على إعادة ربط جذورها بكليّاتها الرصينة التي كانت محلّ اتفاق في صدر الإسلام في صورته الأولى المشرقة على عهد النبوة، و أن تأخذ العبر و العضات في وحدة الصف و في اتحاد لحمة الأمة و مكوثها الديني و العلمي و الثقافي الأصيل و أن تفتح المجال للتلوّن المذهبي البسيط من أجل ترك مجال رحب لحرية الفهم و إعمال العقل في فروع الدين، وأن تترك الأمر للنخب العاملة ذات البعد الموسوعي المتكامل خاصة ذات التكوين الأكاديمي منها.

#### خاتمة:

يرجع منشأ الخلاف و الاختلاف بين الأمة أساسا إلى طبيعة هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده ليساير الزمان و المكان و ليساير العقل الإنساني في تطوّر مداركه و احتياجاته، كما يفسح الدين للعقل المسلم مجالات رحبية في البحث عن الحق وفق أصول و ثوابت هي كليّات هذا الدين التي لا تتغير و لا تبدّل من حيث تأصلها و من حيث جوهرها.

انتقل الاختلاف الفقهي والعقدي من حالة الاجتهاد في فهم الأصول و في تقريب الفروع إلى حالة ووضع الإسقاط السياسي و تحوّل الحوار و التنافس إلى حالة من التدافع العنيف المربك لتراتب الاستقرار المجتمعي لما ظهر الغلو والتطرّف في تطبيق تلك الأفكار و الاجتهادات المختلفة لدى النّخب على أرض الواقع.

إنّ تدابير الخروج من حالات الانكسار و التفرّق و التنازع الفكري بين جماعات و مذاهب الأمة ينبغي لها أن تكون بين أيدي نخبها العاملة ذات البعد الموسوعي، تلك النّخب التي يجب أن تأخذ على عاتقها وضع أسس علمية لعملية إعادة رسم حدود الاختلاف و التنوع و تبيّن محدّدات الاتّفاق و التكامل و الحوار و التواصل بين مرجعيات التّأصيل و الاجتهاد الفقهي و بين أطر البحث في الفكر و الاعتقاد من أجل الوصول إلى رؤية تكاملية جامعة تتوافق مع أصول و جوهر هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده.